3

عودة المنفى

سنوات مرت، ويا لسخرية الأقدار! فقد أطفالي أيضًا بيتًا ووطنًا، كما لو أن الترحال قدرنا المكتوب على درب الآلام.

لعل المنفى وراثيٌّ، دروبه مرسومة لنا واستمراريته مقدّرة على حياتنا، لعل المنفى ملاكنا الحارس، نجمتنا الهادية، وديعتنا الثمينة التي نورثها للأبناء كما لغيرهم. لعل المنفى ثروتنا، يزيل أدراننا ويعيق تجذرنا، تأصلنا في الأمكنة. نأخذ حذرنا منه لكنه يداهمنا ويحيطنا وتتسع حلقاته حولنا. نمشي ونرحل ونهرول، نغادر ونلفّ ونحوم، قد نستأجر بيتًا ونلتقط المتعة قبل هروبها ونحملق بالآخرين لنعزي أنفسنا بأننا أكثر خفة وحرية، نظن أنفسنا أحرارًا بل نبقى أحرارًا وإن فقدنا حكمتنا. المنفى هو هذا، كل هذا،

شريطة ألا نُحبس في مخيم كما قُدّرَ على قومي ولم يُقدّر على أمي.

لنعد إلى أمّ السنوات، إلى ألف وتسعمائة وثمانٍ وأربعين، النكبة مصيبة المصائب، حين انقلبت السماء فوق رؤوس الفلسطينيين. لم تنسَ أمي أيامها التي طالت وطالت وهي تهيم في صحراء النقب مع أهلها مخلّفين كل شيء ورائهم، هاربين مطرودين واثقين من رجوع قادم لا ريب، من بيوت وحياة ستكون بانتظارهم كما تركوها. هذا لم يتمّ أبدًا ولن تتاح لهم سوى الزيارة والزيارة فقط. احتل الآخرون كل شيء، كانوا يترقبون ويتربصون، يلفّون في الجوار ويدورون حول هذه الحيوات التي تتفكك لينقضّوا عليها ويعقدوا مكانها حبال حياتهم هم.

انقلبت الحياة، لم تعد سوى رحيلًا أو انتظارا لرحيل. تعددت أماكن المنفى، هذا المحتال الخبيث الذي يتمركز في أماكن عدة ويتكاثر ولا علاج له. هل سأمتع ناظري يومًا برؤية بيت بير السبع؟ هل سأغدو يومًا ما فلسطينية كاملة، شقفة واحدة عن حق وحقيق؟ الحق لا يتجزأ الإنسان يفعل فقط، لهذا غدونا مشتتين مشرذمين أجزاء مفككة، ملطّخة، داكنة في بعض الأماكن وشفافة في بعضها الآخر. هذا ما يريده التاريخ، تاريخ بلادنا التي نُزع عنها تاريخها.

ها نحن في الحاضر، وحده محطّ اهتمام الآخرين. وحيدون، وحيدون تمامًا ننظر لماضينا نحاول فهمه ونلعنه. اليوم نحن مبعثرون كقطع البازل،

إنما لا نستكين. "بغيضون وقذرون وشريرون"(*) وضعيفون فليكن، إنما مقاومون. نقاوم ونصطحب معنا حكاياتنا لنقصها على صغارنا، كان ياما كان في قديم الزمان...

لكن أطفالنا لايحبون حكاياتنا التعيسة.

(*) Affreux sales et méchants عنوان فيلم إيطالي لـ ايتور سكولا 1976.